أسلـ ب الـ علـ

للأسلوب في أي شيء قيمة كبيرة، قد تزيد في بعض الظروف والأوضاع على قيمة المضمون. وقد قالوا من قبل: ليس المهم ما قيل، ولكن كيف قيل. وفي ظني أن علينا ـمعاشر المربين ـ أن نبحث دائمًا عن الأساليب الأكثر أناقة والأكثر رقيًا في خطابنا لمن نقوم على تربيتهم؛ لأن ذلك الخطاب يعبر عن مجمل شخصياتنا ومداركنا. كما أن الخطاب حين يكون راقيًا يبني ذوقًا وأدبًا وخلقًا راقيًا لدى الذين نربيهم. وفوق هذا وذاك فإن الأسلوب الناعم يجعل المتلقي أكثر استعدادًا لقبول ما نقوله له. وهكذا فخير من أن أقول: هذا كذب. أقول: هذا خلاف الواقع. أو أقول: معلوماتي حول هذا الموضوع غير ما ذكرت. ويمكن أن نقول لإنسان لمسنا منه العجلة: إنك عجول، أو دائمًا أنت مستعجل. ولكن الأحسن منه قولنا: الروِيَّة جيدة، والعجلة لا تأتي بخير. وإذا رأينا رجلاً يغيِّر رأيه في الأمور كثيرًا، فيمكن أن نقول له: أنت متناقض. أو نقول: كل يوم لك رأي. وخير من ذلك أن نقول له: كان لك في الماضي رأي مختلف، فهل جدَّت لديك خبرة أو معلومة جديدة حتى غيرت رأيك؟... إلخ.

التعليم علم وفن، وكذلك التربية. والعلم مضامين ومفهومات وإشارات ينقلها الواحد منا إلى من يعلمهم. أما الفن فهو مجموعة الأدبيات والمهارات التي نستخدمها في نقل ما نريد نقله. والفن هو الأسلوب. ونحن في أسلوبنا التعليمي نصبُّ كل براعتنا وإمكاناتنا الذهنية والشعورية والجسمية أيضًا. ولذا قالوا: إن أسلوب الرجل هو الرجل نفسه. وقد دلت نتيجة اختبار أعدَّ على وجه الخصوص للمقارنة بين قدرات مئات الألوف من طلاب عدد كبير من الدول، يدرسون مادتي الرياضيات والعلوم في الصف الثاني المتوسط ـ دلت نتيجة ذلك الاختبار على أن الفروقات الجوهرية بين تعليم وتعليم؛ لا تتجسَّد في نوعية ما نعلم، ولكن في كيفية تعليمنا. ولذا فإننا لن نكون مسرفين إذا أعطينا لمسألة

الأسلوب ثلث جهدنا أو نصفه. إن التعليم عمل مُرضٍ ومجزٍ وممتع إذا مارسناه بطريقة صحيحة. وهو عمل شاق ومزعج ومحبط للمُعلِّم والمتعلم معًا إذا مارسناه بطريقة خاطئة.

التوسط في التعامل مع الناشئة:

كثيراً ما تحولت بعض الفضائل إلى رذائل، وبعض الميزات إلى نقائص وسلبيات، لا لشيء سوى أنها فقدت سمة التوسط والاعتدال. وإذا نظرنا في أسلوبنا التربوي والتعليمي وجدنا أنه كثيرًا ما يفقد هذه الفضيلة. وما ذاك إلا لأن الناس ينجذبون بقوة إلى أحد الطرفين، ويهملون الوسط أو ينسونه. بعض الآباء والمُعلِّمين يعتقدون أن المزيد من التخلي عن الناشئ يساعده على النضج المبكر، وعلى اكتساب مزيد من الوعي. وبعض آخر من الآباء والمُعلِّمين يعتقد أن المخاطر تحيط بالأولاد من كل جانب؛ ولذا فينبغي أن نوجه إليهم مزيدًا من الرعاية والاهتمام. وبعض الآباء يرى أن توفير مزيد من الرفاهية للطفل يعد من جملة مظاهر الارتقاء الاجتماعي الذي لا يكون للثروة معنى واضح من غيره.

إن بعض ما يقوله هؤلاء، وبعض ما يقوله أولئك وجيه ومفهوم، لكن المشكلة تكمن دائمًا في مجاوزة الأشياء لحدودها المنطقية والعرفية. الأب الذي لا يحاول تَلمُّس معاناة ابنه في ذهابه إلى المدرسة أو في علاقاته مع زملائه؛ والأب الذي لا يعرف أي شيء عن المشكلات التي يواجهها ابنه في دراسته... لا يساعده على تحمل المسؤوليات، ولكن يعرّضه لمشكلات صامتة قد تؤدي إلى انحرافه أو إلى تركه الدراسة.

والمُعلِّم الذي لا يسأل طالبًا كثير الغياب عن حضور الدروس عن أسباب غيابه؛ والمُعلِّم الذي لا يسأل تلميذه عن أسباب انخفاض درجاته... إن هذا

المُعلِّم، لا يساعد طالبه على الاستقلال الذاتي، وإنما يشعره من وجه خفي أن ما هو فيه طبيعي ومقبول.

من وجه آخر فإن الأب الذي يوظف لابنه من يفتح له باب السيارة، ومن يحمل له حقيبته إلى باب المدرسة، والأب الذي يبرِّئ ابنه من أي خطأ أو تقصير، ويحمِّل المُعلِّم أو الزملاء أو الجيران المسؤولية الكاملة لكل نزاعات ابنه ومشكلاته ـ إن هذا الأب يوفر لابنه حماية زائدة لا يستفيد منها، وإنما يتأذى حيث إن الطفل ينشأ آنذاك وهو غير قادر على تقدير الأخطار؛ لأنه نشأ بعيدًا عن أي خطر، كما أنه يفتقر إلى الجرأة والمخاطرة. ويكون في العادة فاقدًا للمناعة من الوقوع في أحابيل قرناء السوء، والانزلاق إلى حمأة المخدرات والانحراف الخلقي.

المُعلِّم الذي يسعى بكل وسيلة لاسترضاء طلابه، ويزيد لهم في درجاتهم بغير وجه حق ـ يضرهم أكثر مما ينفعهم؛ حيث يفقدون فضيلة الاهتمام بالدأب والجدية، ويضعف احترامهم لعلمهم ومدرستهم.

الطالب في حاجة إلى ألا نتخلى عنه وألا نهمله، كما أنه بحاجة إلى ألا نطويه تحت أجنحتنا لنلغي شخصيته ووجوده. والتوازن المنشود في هذا الشأن ليس في متناول اليد دائمًا، فلا بد من البحث المستمر عنه.

المعارف المقفلة:

كان من جملة التقاليد العلمية لدى علمائنا القدامى؛ أنهم يركزون على تحفيظ الطالبَ صغير السن القرآنَ الكريم، وأكبر قدر ممكن من المتون في العلوم المختلفة، انطلاقًا من كون الصغير أقدر على الحفظ منه على الفهم. وعندما يتجاوز الطالب مرحلة معينة في الدراسة؛ يبدؤون في تقديم مواد شارحة للمتون التي حفظها وهو صغير. وكانوا يقولون: (الحفظ في الصغر كالنقش على

الحجر)، و (من حفظ المتون نال الفنون). ولا ريب أن ذاكرة الصغير أقوى من ذاكرة الكبير، وأن قدرته على الحفظ أعظم. كما أن قدرة الكبير على مناقشة المسائل الخلافية، وقدرته على التجريد أكبر. وعلى هذا فإن خطة القدماء لم تكن بعيدة عن الصواب، ولكن لا بد من ملاحظة أمرين:

أ ـ الظن أن الصغير ليس قادرًا على التفكير. وهذا ليس بصحيح؛ فابن الحادية عشرة يستطيع أن يناقش بعض القضايا الاجتماعية المعقدة، وأن يقترح بعض الحلول لبعض المشكلات اليومية إذا تلقى شيئًا من التدريب على التفكير والمحاكمة العقلية، وهناك تجارب عديدة تؤكد ذلك.

ب ـ وجود إمكانية لاستمرار الطالب في الحفظ والتكرار للمعلومات ولو قرأ بعض الشروح والحواشي؛ حيث لا يتولى المدرس مناقشة الأقوال المختلفة. ولا يسأل الطالب عن شيء منها، ومن ثم فإن الطالب يقوم بحفظها، ثم سردها وقت الاختبار. وهذا موجود ـإن لم نقل سائدـ قديمًا وحديثًا.

ونشهد اليوم هجومًا شرسًا على طريقة الحفظ في تلقي العلم، كما نشهد الكثير من القول الذي يرفع من شأن التحليل والفهم والمناقشة في التعامل مع المعرفة. ولا يخلو كل ذلك من شيء من المبالغة والتزيد؛ إذ إن من غير الممكن تكوين شخصية علمية جيدة؛ من خلال وجود قدرات عالية على الفهم والتحليل؛ من غير امتلاك صاحبها لكمية جيدة من المعلومات والقواعد والمفهومات الراسخة والمتفق عليها. ولهذا فإنني أرى أن نهتم بتحفيظ الصغار كما كان القدماء يفعلون، ولكن إلى جانب هذا لا بد من تدريسهم بعض مهارات التفكير، ومحاولة تفتيح أذهانهم على ملاحظة بعض الأشياء. وكلما تقدم الطالب في المراحل الدراسية خففنا من الحفظ وتلقين المعارف المقفلة والجامدة، وصرنا إلى تقرير المواد التي تعتمد أكثر فأكثر على الفهم والمناقشة

والحوار وحل المشكلات. ومحور القضية هو المُعلِّم وليس المنهج؛ حيث إن المُعلِّم الجيد يستطيع إثارة المناقشات في أي مقرر من المقررات مهما كانت درجة جموده وانغلاقه، ومهما كانت نوعية المعرفة التي يقدمها. كما أن المُعلِّم بإمكانه أن يحول أي مادة حية ومنفتحة إلى مادة ميتة يكرر الطلاب معلوماتها دون أي فهم لها أو تفاعل معها. وأذكر مجموعة من الطلاب استعصت عليهم مادة اللغة الإنجليزية، فعمدوا إلى نظم مفرداتها في أبيات من الشعر؛ حتى إذا سئلوا عن معنى كلمة في الامتحان استرجعوا محفوظاتهم وأجابوا بالمطلوب!!

إن تقديمنا للمعرفة من غير مناقشة جيدة لمضامينها، ومن غير محاولة لجعل الطالب يتفاعل معها، ويثير الأسئلة حولها ـ يكوّن لدى أبنائنا عقلية البعد الواحد، ويدفعهم إلى فهم الظنيات على أنها قطعيات، وإلى التعامل مع الأمور المختلف فيها كما يتعامل مع الأمور المتفق عليها. وهذا وحده كافٍ لتشويش كل مركبهم العقلي، وجعل رؤيتهم للأشياء والأحداث عمشاء حولاء! ولست أستبعد أن يؤدي أسلوبنا في تقديم المعرفة على ذلك النحو إلى تغذية روح التعصب والتحزب التي نلمسها عند كثير من الناس اليوم!

المعارف المقفلة تشكل الأساس، ولكن الأساس من غير سقف وجدران لا يشكل منزلاً يُسكن. والمعارف المفتوحة القابلة للنمو والاختلاف والجدل هي التي تكمل البناء، وهي التي تمنح الأساس المعنى الذي يجعله شيئًا لا بد منه.

المُعلِّم الناجح يتخذ من المعارف الأساسية والمقفلة، ومن المعارف المفتوحة وسيلة لتكوين عقلية الطلاب التكوين الصحيح، كما يتخذ منها حافزًا يدفع الطالب إلى المزيد من التشوق لاكتساب الجديد. وهذا لا يكون إلا إذا حاول المُعلِّم من خلال شرح المادة التي تخصَّص فيها تمليكَ الطالب رؤية واضحة لطبيعة المادة وآفاق النمو التي تنتظرها، إلى جانب توضيح المشكلات التي يواجهها

المتخصصون في الفرع الذي تتبعه. إن المُعلِّم الذي يستطيع النفاذ إلى هذه المعاني يثير في نفوس طلابه شهية البحث والتنقيب عن الأمور الغامضة، وبذلك تتحول المعرفة من شيء يردده الطالب إلى شيء يحفزه على تحصيل المزيد من العلم والخبرة، وهذا ما نحتاجه اليوم أشد الاحتياج.

الوضوح في الشرح:

حين يقف المدرس أمام طلابه ليشرح لهم مسألة من المسائل؛ فإنه يعتمد على نحو أساسي على (اللغة). واللغة ليست أكثر من رموز صوتية؛ أوجد العرف علاقة بينها وبين معانيها. وحين نقوم بصياغة جملة أو عدة جمل للتعبير عن معنى معين؛ فإننا نستخدم مهاراتنا اللغوية الخاصة والتي تختلف ـبالطبعـ من شخص إلى آخر. وقد دلتنا الخبرة على أن سوء الفهم من لدن السامعين لا يشكل حادثة غريبة، بل إنه شائع جدًّا بسبب قصور اللغة واختلاف المستويات الثقافية. وهذا يدعونا إلى أن نسلك مختلف الطرق من أجل إيصال المعلومة التي نريدها على الوجه الذي نريده.

ويستطيع المُعلِّم بلوغ ذلك أو مقاربته إذا ما قام بالآتي:

• إيراد الأمثلة على الشيء أو الفكرة التي يريد توضيحها؛ فالمثال يخفف من مستوى تجريدية اللغة، ويقرّب المعنى المشروح من الخبرة المتوفرة لدى الطالب. ولا شك أن فهم الطالب للطيش والتهور، وعدم الإحساس بالمسؤولية سوف يكون أفضل إذا ما جسّدنا هذه المعاني بسلوك سائق السيارة الذي اصطحب معه أسرته في رحلة، ثم قاد سيارته بسرعة هائلة تتجاوز كثيرًا السرعة المسموح بها. إذا كان المُعلِّم يتحدث عن معنى المثابرة والمواظبة والالتزام في أداء الأعمال، فإن مما يساعده على تجلية هذا المعنى؛ أن يذكر لطلابه ما عُرف عن النحل والنمل من متابعة العمل على نحو لا يعرف الكلال ولا الملل... وهكذا.

إن الأمثلة لا تقرب المعنى المراد تقريبه من ذهن الطالب فحسب، ولكن تجعله أكثر معقولية أيضًا وأشد ثباتاً في دائرة الممكن؛ إذ إن الطالب الكسول قد لا يتصور أنه قد يُمرّ على الطالب سنة دراسية كاملة دون أن يغيب عن أي محاضرة، إلا إذا قلنا له: إن فلانًا وفلانًا من زملائك لم يغيبا في العام الماضي مطلقًا.

• حين يرى المُعلِّم أن بعض طلابه لم يستوعبوا ما قاله نظرًا لاستخدامه كلمات أو تعبيرات غير مفهومة لديهم، فإنه يستطيع أن ييسر سبل الفهم عليهم من خلال الإفاضة في الشرح واستخدام كلمات أكثر انتشارًا في البيئة المحلية. وقد يلجأ إلى أن يسأل بعض الطلاب النجباء عن اللفظ أو التعبير العامي الذي يستخدمه الناس في أحاديثهم المعتادة. وقد يقوم المُعلِّم بنفسه بسؤال الطلاب عما فهموه من قوله: كذا وكذا. فإذا وجد أنهم لم يفهموا عنه ما يريد أعاد طرح ما قاله بأسلوب أيسر.

• قيام المُعلِّم بتجزئة القضية التي يقوم بشرحها؛ لأن خيال الطالب وقدرته على الفهم قد لا يساعدانه دائمًا على متابعة المُعلِّم على النحو المطلوب، وعلى لملمة أطراف القضية المطروحة. إذا فرضنا أن المُعلِّم يتحدث عن ظاهرة (البطالة) في صفوف الشباب؛ فإنه يستطيع تجزئة هذه الظاهرة إلى عدد من الأجزاء الرئيسة، مثل تعريف البطالة وأسبابها والآثار المترتبة عليها، وكيفية معالجتها والجهات التي يمكن أن تساعد على حلها، وما يتطلبه الحل من تغيير في حياة الباطل عن العمل، وفي حياة الناس على نحو عام.. إن تجزئة القضية الواحدة إلى أجزاء متمايزة يسهِّل فهمها، كما يسهِّل تقطيع رغيف الخبز إلى قطع صغيرة عملية مضغه وبلعه. وتجزئة القضايا والمسائل لا تساعد على فهمها فحسب، ولكن تساعد أيضًا في بناء التفكير السببي والمنطقي لدى الطالب. فنحن حين

حاولنا تفكيك ظاهرة (البطالة) قمنا بتعريفها، وبيان أسبابها، والنتائج المترتبة عليها... وهذا كله يساعد الطالب على امتلاك الرؤية المنظمة.

• قد لا يكتمل الوضوح المنشود في شرح المدرس من غير قيامه بالنظر إلى الشيء الذي يقوم بشرحه من زوايا مختلفة، ومن غير تقديم شرح للآراء المختلفة حوله؛ إذ ليس المطلوب أن يفهم الطالب ما نقوله فحسب، وإنما المطلوب أن يدرك على نحو جيد أبعاد الموضوع الذي نطرقه أمامه. وإذا عدنا إلى موضوع (البطالة) وجدنا أن في إمكان المُعلِّم أن يوضح التعريفات المختلفة للبطالة ـوهي تعريفات كثيرةـ كما أن في إمكانه أن يعرض وجهات النظر التي تحصر أسباب البطالة في القصور الثقافي الموجود لدى الباطل عن العمل. ويمكن أن يعرض كذلك وجهات النظر القائلة بأن البطالة تحدث بسبب بطء حركة التنمية، وجمود الأسواق، وضعف القدرة الشرائية لدى المستهلك... إلخ.

إن هذا العرض للرؤى المختلفة لهذه الظاهرة؛ لا يساعد الطالب على حسن الفهم فحسب، ولكن يساعده على امتلاك رؤية مرنة للأشياء، كما توسع آفاق التصور لديه، وتحميه من الرؤية الأحادية.

• إعطاء وقت أطول لتساؤلات الطلاب حول المعلومات التي قدمها المُعلِّم أثناء الشرح. والحقيقة أن هذه النقطة ذات أهمية كبيرة، فأسئلة الطلاب هي أكبر مرشد لنا للتعرف على مواقع كلامنا لديهم. والأفضل ألا تؤخر التساؤلات والإجابة عنها إلى آخر الحصة أو المحاضرة، وإنما تُثار خلال الشرح؛ لأن ذلك يعطي للدرس حيوية خاصة، ويحمي الطلاب من الشرود الذهني، ومن الإحباط الذي يتولد من تراكم الجزئيات التي لا يفهمها الطالب من شرح أستاذه.

• كلما استطعنا استخدام وسائل إيضاح أكثر خلال الشرح كنا أقرب لجعل استيعاب الطالب لما نقوله أفضل، فاللغة التي نستخدمها ـكما ذكرناـ عبارة عن نظام لرموز ملفوظة؛ ووسائل الإيضاح ـعلى نحو عامـ تخفف من رمزية اللغة؛ أي تجعل الذهن يتعامل مع مسائل أقل تجريدًا، وأدخل في حيز المحسوس والملموس. وهذا لا يخفف من الجهد العقلي الذي يبذله الطالب في محاولات الفهم فحسب، وإنما يحسِّن مستوى الفهم نفسه، ويحد من دائرة جموح الخيال وتشتته. وقد دل العديد من الدراسات على أن مستوى الذكاء يرتفع بضع درجات لدى الطلاب الذين يدرسون في مدارس تستخدم وسائل تعليمية بكثافة؛ إذا ما قورنوا بطلاب لا يستخدم مُعلِّموهم وسائل الإيضاح على نحو كافٍ.

كلما كان الموضوع الذي يشرحه المُعلِّم جافًّا وبعيدًا عن اهتمامات الطلاب كانت الحاجة إلى وسائل التعليم أشد؛ حيث تساعد وسائل الإيضاح على تخفيف الضغط داخل حجرة الدراسة؛ من خلال قطعها لتدفق المعلومات والأفكار الذي يأتي به نمط الإلقاء المتوالي للمحاضرة أو الدرس. كما أن عدد الطلاب حين يكون كبيرًا أو تكون قاعة الدرس كبيرة؛ فإن انتشار وسائل التعليم في الفصل ـكأجهزة الحاسبـ تساعد الطلاب على متابعة المُعلِّم؛ والاستفادة منه على نحو أفضل.

إن من أسرار تقدم التعليم في كثير من الدول غِنى مدارسها وجامعاتها بالمختبرات والمعامل التعليمية ووسائل الإيضاح المختلفة؛ مما يساعد على تكوين الشخصية العلمية الرصينة. وقد آن الأوان لأن يقوم أصحاب الأموال في عالمنا الإسلامي بواجبهم تجاه المؤسسات التعليمية، ليساعدوا أبناء المسلمين على الحصول على تعليم جيد. ولا ينبغي أن يكون أثرياء الغرب أكثر سخاءً في هذا المجال. ومن المعروف أن الأموال التي يتبرع بها الأغنياء هناك قد أسهمت إسهامًا

كبيرًا في رفع سوية المؤسسات التعليمية، وتقدم حركة البحث العلمي على نحو مذهل.

التعليم التطبيقي:

يشكل المتعلم كثيرًا من تصوراته ومفهوماته عن الوجود والأشياء من خلال الكلمات التي يسمعها من مُعلِّميه ومجتمعه. وتدل دراسات عدة على أن تلك التصورات والمفهومات تظل ناقصة ـوأحيانًا مشوهةـ بسبب قصور اللغة وبسبب إمكانية الفهم المتعدد الذي تتيحه طبيعة التركيب اللغوي، والذي يتيحه خصب الخيال لدى كل إنسان وكل طالب. إن المُعلِّم يطلق تعميمات، ويقرر قواعد، ويشرح تصورات، يشعر المتعلم معها أنه محتاج إلى الدلائل والبراهين التي تثبت صحتها وتجعله يتأكد أنه فهمها على الوجه الصحيح. ولا يستطيع أن يحصل على ذلك إلا من خلال المعايشة الحقيقية للأنشطة، والممارسات التي تتجسد فيها تلك المفهومات والتصورات.

وربما كان من العيوب الكبرى التي يشكو منها التعليم في العالم النامي أنه يفتقر افتقارًا شديدًا إلى التطبيق العملي، مما يجعل بالتالي كفاءته محدودة وثمراته قليلة. وقد دلت التجربة على أن الواحد منا مهما قرأ عن جغرافية مدينة وتاريخها وأخلاق أهلها؛ فإنه لن يحصل على الصورة التي تحكي واقعها على نحو دقيق. إن التجوال في شوارعها والتحدث إلى أهلها وزيارة متاحفها... هو الذي يوقفه على الصورة الصادقة، ويدله على نقص المعلومات التي كانت لديه عن تلك المدينة.

الممارسة العملية خلال التعليم لا تساعد على توضيح الصورة وصقل المهارة فحسب، ولكنها تخفف من حدة الملل والسأم ـوأحيانًا الإحباطـ الذي يتولد

من الاقتصار على التعليم النظري والسرد المتتابع للمفهومات والمعلومات التجريدية.

إذا كان الطلاب يدرسون ـمثلاًـ مادة تشتمل على موضوعات في اتخاذ القرارات وحل المشكلات؛ فإن فوائد عظيمة تعود عليهم في حالة ذهابهم إلى مؤسسة أو شركة، وسماعهم من القائمين عليها شرحًا عن طبيعة المشكلات التي تواجههم. وبعد الحصول على المعلومات التي يحتاجها الطلاب؛ يقومون بتقديم المقترحات والحلول التي يمكن أن تفيد في التخفيف من وطأة تلك المشكلات.

وإذا كان الطلاب يدرسون مادة في التسويق؛ فإن من المهم جدًّا أن يذهبوا مرات عدة إلى بعض محلات بيع التجزئة ليروا عن كثب كيف يمارس البائعون فنون البيع، وكيف يتعاملون مع مطالب الزبائن والعملاء، وليتداولوا بعد ذلك في أشكال الخلل الذي يحدث أثناء عمليات البيع، وفي كيفية معالجته.

وإذا كان الطلاب يدرسون مادة في الزراعة، فإن من المهم توفير فرصة لهم لزيارة بعض المزارع؛ ليشاهدوا على الطبيعة عمليات الزرع والحصاد والري، وليستمعوا إلى المشكلات التي تواجه المزارعين في أعمالهم. وقل مثل هذا في قيام الطلاب بزيارة المحاكم والدوائر الحكومية، ليتعرفوا على كيفية تسيير الحياة اليومية من قبل موظفي الدولة، وكيفية تطبيق العدالة وحماية حقوق الناس. ويجب في كل الحالات السابقة أن يُتاح للطلاب الوقت الكافي للمناقشة، والحوار، وإبداء الملاحظات، واستخلاص النتائج؛ وإلا فمن الممكن أن تتحول تلك الجولات إلى أنشطة للتسلية وهدر الأوقات؛ كما يحدث في كثير من الأحيان.

إن كثيرين منا يملكون مهارات عالية في تشقيق الكلام وطرح النظريات، لكننا ـمع الأسفـ لا نملك إلا القليل من الأعمال المنظمة تنظيمًا جيدًا، وإلا

القليل من المهارات والخبرات العملية. ويجب أن ننهي هذه الحالة من خلال البدء في تغيير أسلوب التعليم.

السرد القصصي:

التاريخ سفر مملوء بالعبر والعظات، ومملوء بتجليات سنن الله ـتعالىـ في خلقه. ونحن في حاجة إلى الاستفادة من تلك العبر، كما أننا في حاجة إلى معرفة تلك السنن. وقد احتل ذكر أخبار الأمم الغابرة مساحة واسعة من القرآن الكريم، وذلك للآثار العظيمة التي تتركها القصة في تشكيل مفهومات الناس ومشاعرهم. وقد قال الله ـجل وعلاـ: {**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**} [**الأعراف**: 176]، وقال ـسبحانهـ: {**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَاب** } [**يوسف**: 111] ويبدو أن للقصة أثرًا موحدًا في الحضارات ووقعًا متجانسًا في توجيه الفكر البشري، فهي من جهة مرآة مدهشة تعكس كل أنماط السلوك البشري في المواقف المختلفة، كما تعكس كل الطرق التي استخدمها الناس في التغلب على صعوبات الحياة. وهي من جهة أخرى مؤشر نتعرف من خلاله على شروط الحياة المرغوبة، وصفات الحياة المكروهة، أو قل: إننا نتعرف من خلالها على موقعنا في التاريخ الإنساني.

نحن عن طريق القصة نُوجِد أجواءً صناعية نضع فيها الطلاب، فيختبرون حياة لم يعيشوها، ويدركون بهجة الآمال، وآلام الخيبة اللاذعة، دون بذل أي جهد أو دفع أي ثمن.

المُعلِّم البارع يستطيع من خلال مهارات السرد القصصي أن يثير الحيوية في أحداث بعيدة عن أذهان الطلاب في زمانها ومكانها، فتتحول من أخبار جامدة لا تعنيهم إلى أدوات لزرع الأفكار فيهم، وإثارة المشاعر والأحاسيس النبيلة. كما يجعل منها أدوات لنقد الصور السيئة في حياتنا.

هذه قصة تحكي مأساة أمة دمرها الاستبداد والطغيان. وهذه قصة تحكي مأساة شاب من أسرة جيدة وقع في شباك قرناء السوء. وهذه قصة تحكي نجاح جماعة على الرغم من الظروف القاسية التي تحيط بها...

إن القصة تتيح للطلاب إمكانات الفهم المتعدد، وتترك أمامهم المجال واسعًا للاستنتاج والاستخلاص، ولذا فإن على المُعلِّم أن يسعى ـبعد الانتهاء من سرد القصة التي لديهـ إلى السماع من طلابه عن الانطباعات التي تركتها تلك القصة في نفوسهم، وعن المفهومات التي استخلصوها منها.

وبعد ذلك يتداول معهم الأنماط السلوكية الخيرة والسيئة التي تشابه النمط الذي عبّرت عنه القصة. وبعد هذا وذاك؛ فإن القصة تخفف من ثقل إلقاء المعلومات المركزة في الفصل، كما أنها تغمس الطلاب في لجة من المشاعر الإنسانية. وهذا مطلوب بقوة اليوم حيث يعاني كثير من الناس من العزلة والاغتراب.

تخفيف الضغوط:

يبدو جليًّا أن في نفوس كثير من الطلاب درجة من المقاومة للتعليم، ولما يقوله الأساتذة. ولا أدري لماذا يحدث ذلك: هل هو تعبير عن رفض الطلاب لسلطة المدرس؟ أو هو نوع من الرفض المقنَّع للاعتراف بالجهل الذي يرسخه موقف الطالب من المُعلِّم؟ وعلى كل حال فإن ساحة التدريس تظل مشحونة بالانفعال والتوتر والتوجس. وسيكون على المُعلِّم أن يسعى إلى تخفيض ذلك التوتر على مقدار ما يستطيع.

ولعلي هنا ألمس بعض ما يساعد في ذلك على النحو الآتي:

أ_ هناك دراسات عديدة وتجارب كثيرة مرَّ بها معظم المدرسين؛ تدل على أن إضفاء جو الدعابة والمرح والطرفة على الجو التعليمي_ يعود بآثار إيجابية جدًّا على أمزجة الطلاب، وعلى قابليتهم للتعلم وحبهم للمدرسة والدراسة. الطُرفة تُحْدِثُ في نفوس الطلاب شيئًا من التفريج عن الكروب العصبية والنفسية التي يشعر بها الطالب، ومن ثم فإن استعداده للتجاوب مع مُعلِّمه يصبح أكبر. ولو أنك تأملت في عيون الطلاب وهي تتلاقى مع بعضها، ومع عيني المُعلِّم أثناء ذروة الضحك الذي تحدثه الدعابة أو الطرفة؛ لوجدت أنها تعبر عن فيض من مشاعر العرفان، ومشاعر الزهو والثقة والتفوق والانفتاح والألفة والعفوية. وكأن الطرفة تحوِّل كل من في قاعة الدرس إلى عناصر كيميائية جمعتها خلطة واحدة، فأخذت تتفاعل على نحو مدهش وعجيب.

حين يضحك الطلاب مع مُعلِّمهم يشعرون بزوال الفوارق الاجتماعية، ويغرقون في مشاعر الزمالة والمساواة؛ وهذا يخفف من خوف الطلاب من استخدام المُعلِّم لسلطته عليهم على نحو غير عادل. كما أن في الدعابة والمرح ما يخفف من اتجاهات الغلو والعنصرية التي يمكن أن تسود في بعض الأوساط التعليمية. بالإضافة إلى كل ما سبق فإن الطرفة يمكن أن تستخدم وسيلة لتحبيب الطلاب بالمواظبة على التعلم، كما أنها قد تستخدم أداة لتثبيت المعلومات لديهم أيضًا. يقول أحد المُعلِّمين: إنه حين كان طالبًا لم يكن ماهرًا في قواعد اللغة العربية، وظل حتى السنة الثانية من المرحلة الثانوية جاهلاً بشيء اسمه الفاعل والمفعول به، والعامل والمعمول، وحذف الفعل... يقول: وذات يوم أورد مدرس اللغة العربية قصة طريفة في سياق شرحه لحذف الفعل، (قال: مرّ أبو جعفر البرتي بسائل على جسر بغداد، فسمعه يقول: مسكينًا ضريرًا! فدفع إليه أبو جعفر بدرهم كان في جيبه، وسأله: لم نصبت مسكينًا ضريرًا؟ فقال السائل: فديتك! نُصبت بإضمار: ارحموا). يقول المُعلِّم: شعرتُ وأنا أضحك من قول

السائل وتعليق أستاذنا عليه ـ كأن حجابًا زال عن بصيرتي، وصرت أنتظر حصة القواعد انتظارًا لعلي أظفر بطرفة كالتي سمعتها.

ب ـ مما يساعد في تخفيف التوتر والضغوط في الحياة التعليمية: إتاحة البدائل وفرص الاختيار أمام الطلاب، وذلك في مسائل أوقات الدوام، والاختبارات، والواجبات المنزلية، وأماكن الدراسة، وتنظيم المقاعد فيها، وبعض المواد والمقررات الدراسية. إن إتاحة فرصة للاختيار تساعد الطالب على تحقيق ذاته، وتُشْعره باحترام مُعلِّميه لرغباته وتقديرهم له. وهذا يخفف من مخاوفه من أن تُفرَض عليه أمور لا تناسبه، أو لا يستطيع القيام بها.

ج ـ نوعية اللغة السائدة في المدرسة بين المُعلِّمين وطلابهم وبين الطلاب بعضهم مع بعض ـ ذات أثر مهم في إشاعة الهدوء والأمان والاستبشار، فاللغة المهذبة الخالية من الاستهزاء والتهديد تشيع السمو والطمأنينة في نفوس الطلاب. وهم بحاجة ماسّة إلى أن يكون للمدرسة دور في حمايتهم من إيذاء بعضهم لبعض، فالتنابز بالألقاب والاستخفاف ببعض الطلاب لبعض الاعتبارات، والاعتداء على بعضهم بالضرب وغيره؛ من الأمور الشائعة جدًّا في المدارس. وهذه الأمور لا تُشيع المخاوف في نفوس الطلاب فحسب، بل قد تتسبب في ترك بعضهم للدراسة أو تأخره فيها. وحين يستمع مُعلِّم لهموم طالب من طلابه، ويسدي إليه النصح المطلوب؛ فإنه يقوم بعمل عظيم على طريق الأخذ بيده ومساعدته على مواجهة مشكلاته. ويتلقى الطلاب بالبِشْر وبكثير من التقدير ما يسمعونه من أساتذهم من كلمات الثناء والتشجيع.

إن لحديث المُعلِّم مع طلابه في غير أمور الدراسة نكهة متميزة؛ حيث يشعر الطالب برعاية أستاذه له، واهتمامه بشأنه الخاص.

دـ مما يشعر الطالب بالأمان في حياته المدرسية والجامعية التزام المُعلِّمين والأساتذة بالمبادئ والأخلاق الإسلامية؛ حيث يتوقع الرفق والعدل والالتزام بالنظم السارية، وتقدير ظروفه الطارئة والخاصة. وهذا كله يجعله لا يخشى من وقع المفاجآت والمنغصات من بعض أساتذته.

هـــ تعليم الطلاب الأمور التي تساعدهم على خفض الضغوط النفسية، مثل اللعب، والاسترخاء، والرياضة، والمشي، والاتصال بالأصدقاء الأخيار، وبث الشكوى لمُعلِّم أو قريب أو زميل.. وما شابه ذلك.

إن كل هذه الأمور تحسِّن البيئة التعليمية، وتجعل إنتاجية المُعلِّمين أفضل على صعيدي التربية والتعليم.

التهديد واستخدام السلطة:

ستظل مهنة التدريس مشوبة بالإحراج، فالمُعلِّم مهما بلغ من الحلم، ومهما ملك من سعة الصدر، يجد نفسه حائرًا في التعامل مع بعض الطلاب. وكم من مُعلِّم استنفد كل إمكاناته وأساليبه في جعل الطالب يقوم بكتابة واجباته أو ينتظم في حضور الدروس، أو يهدأ في الفصل... ولكن دون جدوى، وآنذاك فإن كثيرًا من المُعلِّمين يجدون أنفسهم مضطرين إلى استخدام سلطاتهم في حمل الطالب على عمل ما يعتقدون أنه الصواب. وبعضهم يتجاوز تلك السلطات إلى الضرب والتهديد والاستهزاء. وقد سُجِّلت في اليابان حالات عديدة مات فيها طلاب أثناء عملية تأديب مُعلِّميهم لهم!!

وقد دار جدل طويل عريض بين التربويين حول إمكانية ممارسة العقاب الجسدي بين الطلاب الكسالى أو المشاغبين. ولا أرغب أن أزج بنفسي في ذلك الجدل؛ ولكن لا بد من القول: إن ضرب المُعلِّم للطالب ينافي جوهر العلاقة التي ينبغي أن تقوم بينهما. وهي علاقة حب واحترام وتقدير وامتزاج روحي، وإن

الأصل أن يمتلك المُعلِّم القدرة المهنية التي تمكنه من تقويم اعوجاج الطلاب، وحملهم على القيام بواجباتهم دون اللجوء إلى الضرب أو التهديد بعقوبة جسدية قاسية.

وعلينا أن نعتبر كثرة لجوء المُعلِّم إلى هذه الأمور دليلاً على نقص في كفاءته المهنية، ونقص في قدرته على إدارته للمشكلات والمعضلات، بل دليلاً على ضعف عام في شخصيته. وعلينا مرة أخرى أن نحكم على المُعلِّم الذي يعجز عن تصحيح مسار طلابه من غير اللجوء إلى الضرب أو الضغط النفسي بأنه قد قطع الطريق على إمكانية قيام علاقة حميمة بينه وبين كثير من طلابه، وأنه بسبب ذلك فقد الكثير من فاعلية أدائه التعليمي. وللمُعلِّم إذا سلَّم بهذه السلسلة من المقولات والإحالات أن يتولى الحكم على نفسه بما يراه مناسبًا.

إن الضغوط النفسية التي يولدها الضرب، والتهديد، والسخرية، والنبز بالألقاب ـ تترك في عقل الطالب ونفسه آثارًا سيئة قد تدمر حياته التعليمية كلها، وقد تترك في شخصيته ندباً يصعب عليه التخلص منها إلا بعد سنوات كثيرة. وتدل بعض الدراسات على أن التفكير والتذكر يتأثران على نحو سلبي بالضغوط النفسية. كما تفيد دراسات أخرى أن الطالب الذي تتوالى عليه الضغوط النفسية يجد نفسه غير قادر على تحديد أولوياته على نحو جيد. كما أنه يميل إلى العنف واللجوء إلى القوة والتربص بالخصوم، بالإضافة إلى أنه يجد صعوبة في الإصغاء إلى الآخرين. وتشير إحدى الدراسات إلى أن الطالب الذي يُمارس ضده التهديد باستمرار يصبح أكثر ميلاً للحفظ بدل التحليل والنقد، وهكذا فإن إنتاجيته تنخفض ونوعيتها تتغير. والأهم من كل هذا أننا من خلال الضغط النفسي قد نغير من رؤية الطالب لذاته، فينظر إليها على أنها ذاتٌ منحطة مُخْفِقة متخلفة، وأنه لا أمل في إصلاحها... وبذلك يكون الطالب قد وقع ضحية فيما يشبه العاهة الدائمة!!